﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وقعت الآية من سابقتها موقع شبه كمال الاتصال، حيث جاءت الآية الكريمة بمنزلة الجواب عن سؤال أثارته الآيةُ السابقة، وكأنَّها عليها السلام لمَّا سمعت ذلك؛ امتلأت تعجُّبًا من بشارتها بالولد من غير انعقاد الأسباب المعتادة، فكأنَّها تعجب من الكيفيَّة، فاستخفَّها ذلك التعجُّب إلى الاستعجال بالسُّؤال من قبل إكمال المقال بأن قالت: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡسَسۡنِي﴾: جذر الكلمة هو: (مسس)، و(مسَّ): قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275]. قال الفرَّاء: المسُّ: الجنون، والعرب تقول: رجل ممسوس، والمسُّ: اللَّمس، ويقال: لا مِساس، ولا مَساس، ومن المجاز: مسَّه الكبر والمرض، ومسَّه العذاب، ومسَّه بالسَّوط، ومسَّ المرأة: جامَعَها، وماسَّها: أتاها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، أي: من قبل أن تُجامعوهُنَّ[2].

2) ﴿بَشَرٞ﴾: جذر الكلمة هو (بَشَرَ)، والبَشَر: الإنسانُ الواحد رجلًا كان أو امرأة، قال تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، لا يُثَنَّى، ولا يُجمع، والبَشْرُ بجَزْم الشِّين: قَشْرُك البَشَرَة عن الجِلْد[3]، والجَمْع أبشار، والبَشَرة ظاهر أعلى جلدة الوَجه والرَّأس والجسد من الإنسان، وهي التي عليها الشعر، وقيل: هي الَّتي تلي اللَّحم[4]، ومن المجاز: فلانٌ

(1) البِقَاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/400 والآلوسي، روح المعاني: 2/157.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (مسس).
(3) الخليل، العَين: (بشر).
(4) ابن سيده، المحكم (بشر).

مؤدم مُبشر، وما أحسن بشرة الأرض؛ وهي ما يخرج من نباتها، فيلبسها، وطلعت تباشير الصُّبح؛ وهي أوائله التي تبشِّر به، كأنَّها جمع تبشير، وهو مصدر: بشَّر، وفيه مخايل الرُّشد وتباشيره، ورأى النَّاس في النَّخل التَّباشير؛ وهي البواكير، وهبَّتِ المُبشِّرات؛ وهي الرِّياحُ التي تبشِّر بالغيث[1].

3) ﴿قَضَىٰٓ﴾: جِذْر الكلمة هو (قضي): قَضَى يَقضي قَضاءً وقَضيَّةً، أي: حكم، وقَضَى إليه عهدًا، معناه الوصيَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]، وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾، أي: حَكَمْنا عليه به، وانقَضَى الشيءُ، وتَقَضَّى، أي: فَنِي، وذهب[2]. وقَضيتُ بينَ الخَصمين، وَعَلَيهِمَا: حَكَمتُ، وَقضيتُ وَطَرِي: بَلغتُهُ، وَنلتُهُ، وَقضيتُ الحاجةَ كَذلكَ، وَقضيتُ الحجَّ وَالدَّينَ: أَدَّيتُهُ، [3]، وقضى هنا، بمعنى: أراد.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا أخبرت الملائكةُ مريمَ عليها السلام أنَّ الله يبشِّرها بالمسيح؛ نادتْ ربَّها، مستفهمةً - ليس شكًّا منها في قدرة الله تعالى - على طريق التَّعجُّب من هذا الأمر الخارقِ للعادةِ، وأنا لستُ بذاتِ زوجٍ ولا بَغِيٍّ؟ قال لها المَلَك: هذا الذي يحدث لكِ - من حدوث الولد من غير أب - ليس بمستبعَدٍ على الإلهِ القادر، الذي يوجِد ما يشاء من العَدَم، فإذا أراد إيجادَ شيءٍ فإنما يقول له: ﴿كُن﴾ [آل عمران: 47] فيكون، فهذا شأنه - سبحانه - في الخلقِ والتَّقدير، لَا يعسر عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ ليبيِّنَ لعباده أنه الفعَّالُ لما يريدُ، وأنَّ ما شاء كان وما لم يَشَأْ لم يكن[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التصدير بالنداء:

في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾ صدّرت مريمُ عليها السلام إجابتها بالنداء للربّ، وفيه معنى الاعتراف بالخلق والتكوين، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى، فهو

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاغة: (بشر).
(2) الخليل، العَين: (قضي).
(3) الراغب: تفسير الرَّاغب: 2/567.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 56، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.

صـدَّرت كلامها بـنـداء الـربّ اعترافًا بالخلق والـتـكـويـن، وكمال الربوبية لله تعالى

تسليم بالقدرة الإلهية، وبأن خالق كل شيء لا يكبر عليه شيء، سبحانه وتعالى[1].

ذهب ابن عاشور إلى أنّ النِّداء للتحسُّر، وليس للخطاب: لأنَّ الَّذي كلَّمها هو الملكُ، وهي قد توجَّهَت إلى الله سبحانه[2]. فخرج النداء بهذا عن حقيقته إلى معنى مجازيٍّ، وهو التحسُّر؛ لما سيصيب سمعتها من ولد بلا أب، وهو شأن البشر.

التصديرُ بالنداء مـجـازٌ وجـهُـهُ التحسّر

بلاغة الاستفهام في الآية:

جاء الاستفهام هنا خارجًا عن حقيقته إلى المجاز، ومعناه هنا: التعجُّب والإنكار، والاستبعاد للحمل على حال بكارتها؛ لذا أُجيبَ عن تعجُّبها بجوابين قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ و﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3]؛ إزالة للتعجُّب، وكان أحد الجوابين كافيًا إلَّا أنَّ ذلك مَليحٌ بلطف الله بعباده ورحمته بخلقه؛ لما خلقوا عليه من النَّقص والاعتبار بالظاهر دون السُّلوك إلى بواطن الأقدار وخوافيها، ويحتمل أن يكون على حقيقته، بمعنى: أنَّه يكون بتزوُّج أو غيره.

مـعـنـى الاستـفـهـام عـلـى طـريـق المجاز التعجُّبُ مـن حـمـلـهـا، واستبعادُ ذلك

يدلُّ قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾ على بالغ عجبها، ويُومئ إلى ارتياعها الذي عبّرت عنه في سورة مريم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]، و﴿أَنَّىٰ﴾ هنا بمعنى: (كيف)، أي: كيف يكون مِنّي ولدٌ ولم يمسسني بشر؟ أي: لم يكن مني ما يكون بين الرجل والمرأة مما يكون منه ولد! فالاستغرابُ في الكيفية، لَا في أصل القدرة الإلهية[4]. فهي عليها السلام قد قالت هذا؛ تعجُّبًا واستفهامًا، لا شكًّا وإنكارًا، على ما أشرنا إليه في قصَّة زكريا، وعلى هذا رأي

(أنّـى) بمعنى كـيـف؛ فـالاستـغـراب في الكيفية، لَا في أصل القدرة الإلهية

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوير: 3/248.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.

الجمهور: أنَّ الذي خاطبها كان جبريل، وكانت تظنُّه آدميًّا يريد بها سوءًا؛ ولهذا قالت: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ [مريم: 18][1]، وعلى هذا المعنى يمكن أن يكون الإنكار باعتباره - في ظنِّها - آدميًّا لا مَلَكًا.

بلاغة القيد بالجملة الحاليَّة المتضمِّنة الكناية:

بيانُ وجهِ الاستغرابِ، وسببُهُ فقدُ السَّبب المعتاد، والكنايةُ أكَّدته

قوله: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ جملة حاليَّة محقِّقة لما مرَّ من الاستفهام ومقوِّية له، وكأنَّها بمنزلة العلَّة في السُّؤال وإبداء التحسُّر، وجاءت الكناية في ﴿يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ كناية عن الطَّهارة والعفَّة بدليل عدم مسِّ أيِّ بشر لها، ويعظِّمه أنَّ الفاعل جاء منكَّرًا، للتَّعميم، كما أنَّ الكناية نفت كلَّ وجوه المسِّ حلالًا وحرامًا، والتَّعبير بالكناية في هذا المقام أبلغ من الحقيقة؛ إذ حقيقته: لم يجامعني بشر، وهو تعبير خادش للحياء، وفي الوقت ذاته ليس مانعًا من مقاربة الجماع، وكان يحتاج لقيد بالحلال أو لطول العبارة بقولنا: لم يجامعني بشرٌ، لا حلالًا، ولا حرامًا، فكانت الكناية أبلغ في البيان عن الطُّهر والعفَّة بأبلغِ طريقٍ وأوجزه.

مجازيةُ المسّ اختلاطُ الرَّجل بالمرأة، وحقيقتُهُ عَدَمُ لَمْسِ الجسم

وتعبير القرآن عن اتصال الرجل بالمسيس في جملة ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي﴾ مجازٌ مشهور معروف، حتى يكاد يكون حقيقة عرفيّة في لغة القرآن الكريم؛ أو نقول: المسّ المراد به حقيقته، وهو أنها لم يلمسها رجل؛ لأنها متبتِّلة دائمًا منصرفة للعبادة لم يلمس جسمها رَجل من غير محارمها قَطُّ؛ وبذلك ينتفي بالأولى ما هو أبلغ من مجرَّد اللَّمس، فموضع العجب والسؤال هو أن يكون ولد من غير اتّصال رَجل بامرأة[2].

نكتة التَّناسب بين ﴿يَمۡسَسۡنِي﴾ و﴿بَشَرٞ﴾:

البَشَرَةُ: أعلى جِلْد الوَجْه والجَسَد من الإنسان، وهو البَشَر؛ إذا

(1) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 3/243.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.

جَمَعْتَه، وإذا عَنَيْتَ به اللّون والرِّقَّةَ، ومنه اشتُقَّتْ مباشرةُ الرجل المرأة؛ لتضَامِّ أبشارهما، ومباشرة الأَمْر: أن تحْضُرَهُ بنفسك[1]، ومن ذلك يظهر التَّناسب في اختيار اللفظتين في قوله: ﴿يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، لأنَّ المسَّ: هو مسكُ الشَّيءِ باليد[2]، أي: مباشرة الشيء، أو جَعْلُ بشرة اليد تلامسه، وقوله: ﴿بَشَرٌ﴾ من البشرة التي تباشر الشيء، فكان جامع الكلمتين: هو المباشرة، فيكون معنى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، أي: لم يحصل بيني وبين رجل مباشرة، كالذي يكون بين المرء وزوجه، وهذا ما يؤوِّلُ سبب اختيار بشر دون رجل، فالبشر: الإنسان والواحد والجميع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء، وقد يثنَّى[3]، فالتناسب أعان على التَّأكيد على العفَّة والطُّهر.

اصطفاء الألفاظ له أثر بالغ في التأكيد على الطُّهر والعفَّة

نكتة الفصل في جواب الاستفهام:

جملة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ جواب الاستفهام وعُدل عن عطفها؛ لأنها جاءت على طريقة المحاورات كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] وما بعدها في سورة البقرة والقائل لها هو الله تعالى بطريق الوحي[4].

وجه الفصل وقوع الجواب على طريق المحاورة المعبّر عنه بألفاظ القول

بيانُ التعبير باسم الإشارة:

الإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكِ﴾، يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمَّنها البشارة بالكلمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾، أي: مثل ذلك الخلق المذكور يخلق الله ما يشاء، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها[5]، وكلٌّ ذلك هيَّأَ للجملة الثَّانية؛ إذ جاءت كعطف البيان لها.

عود (كذلك) إلى القدرة التي تتضمَّنها البشارة بالكلمة، أو إلى حال مريم

(1) الخليل، العَين: (بشر).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: 12/226.
(3) ابن سيده، المحكم: (بشر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(5) ابن عطيَّة، المحرِّر الوَجِيز: 1/436، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.

بلاغة تقديم المبتدأ على خبره الفعليّ:

في تقديم لفظ الجلالة تقوية للمعنى، وتوكيد بيان إزالة حالة العجب والاستغراب

جاء قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ في قوة الجواب للاستفهام السَّابق؛ لأنَّها عنه نشأت، وعليه ترتَّبت، وجاءت الجملة على نسق عجيب من البناء، فأصل التركيب: (الله يخلق ما يشاء كذلك)، فقد قدّم الخبر على المبتدأ، وقدّم المبتدأ على خبره الفعليِّ ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، وقد جاء الفعل مضارعًا؛ دلالة على التَّجدُّد والحدوث، وفاعله ضمير يعود على لفظ الجلالة، فكأنَّ الفعل أسند مرَّتين، وفي كلِّ ذلك تقوية للمعنى وتوكيده في بيان أنَّه لا عجب مع قدرة القادر، فهو لا يفتقر لأسباب. قال ابن عاشور: "وتقديم اسم الجلالة على الفعل في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ﴾؛ لإفادة تقوّي الحكم وتحقيق الخبر"[1].

نكتة التعبير عن الجمع بالمفرد:

تقديمُ مثال واحد سبيلٌ لسهولة الفهم لدى المتلقّي

عبَّر بالمفرد في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ عن الجمع، فذكر ﴿أَمۡرًا﴾، والمُراد جميع أمور الوجود، فإن أرادها؛ قال لها: كُن فيكون، وفائدة هذا الفنِّ تقديم مثال واحد بغية سهولة الفهم لدى المتلقّي؛ وهو منهجيَّة قرآنيَّة مُطّردة.

وجه مناسبة جملتي جواب الاستفهام:

وقعت الجملة من سابقتها موقع كمال الاتصال بوصفها بيانًا للمشيئة، وفي ذلك تأكيد لإزالة العجب والاستغراب

وقعت جملة ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾ من سابقتها موقع كمال الاتصال حيث جاءت بيانًا للمشيئة، وفي ذلك تأكيد لإزالة العجب والاستغراب، ويقوِّيه التعبير بـ﴿قَضَىٰٓ﴾ وهو هنا، بمعنى: أراد، والإرادة بيانٌ للمشيئة في الجملة السابقة.

بلاغة التعبير بجملة الشرط:

جاءت جملة الشرط ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.

مصوغةً بأسلوب التعليق، واقترن جواب الشرط بالفاء، وبني على أسلوب القصر؛ تأكيدًا لسرعة حصول الجواب بمجرَّد الإرادة.

في الشرط هنا تأكيدٌ لسرعة حصول الجواب بمجرَّد الإرادة

قصديّة اختيار الفعل ﴿قَضَىٰٓ﴾:

عبَّر سبحانه عن الإيجاد بالفعل: ﴿قَضَىٰٓ﴾؛ إشارةً إلى أنّ إيجادَه للأشياء ليس إلَّا من قبيل الحُكم عليها بالوجود، فإذا حكمَ بالوجود في أمر نُفِّذَ حُكْمهُ، وحكمُهُ هو أن يقول: كن، فيترتّب على ذلك أن يكون[1].

إيجاد الباري للأشياء هو من قبيل الحكم عليها بالوجود

بديعُ صوغ الإجابة على طريق المطاوعة:

وبني على طريق المطاوعة ﴿كُن﴾، وهي كلمة دالّةٌ على التكوين بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خَلْقَ الشيء وإيجاده، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة[2]. واقترن فعل المطاوعة بالفاء الدَّالَّة على سرعة الوقوع من غير مهلة، ويؤيِّد ذلك أن مدَّة حمل البتول الطاهرة قصيرة جدًّا، وكلُّ هذا يفيد تحقيق الأمر الذي ذُكر قبله، من غير تأخُّر ولا حاجة إلى سبب؛ وأنْ لا رادَّ له، وهو كقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: 50]، أي: إنَّما نأمر مرَّة واحدة لا تثنية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعًا كلمح البصر[3].

دلالة المطاوعة مع الاقتران بالفاء سرعة الاستجابة، والوقوع من غير مهلة

قال العمادي: " ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ لا غيرُ. ﴿فَيَكُونُ﴾ من غير ريث وهو كما ترى تمثيلٌ لكمال قدرته تعالى وسهولةِ تَأَتِّي المقدورات حسبما تقتضيه مشيئتُه، وتصويرٌ لسرعة حدوثِها بما هو علم فيها؛ من طاعة المأمورِ المطيعِ للآمر القويّ وبيانٌ لأنه تعالى كما يقدِر على خلق الأشياءِ مُدرجاً بأسباب وموادَّ معتادةٍ يقدِر على خلقها دفعةً منْ غيرِ حاجةٍ إلى شيء من الأسباب والمواد"[4].

جملة المطاوعة تمثيلٌ لكمال قدرته تعالى وسهولةِ تأتّي المقدورات حسبما تقتضيه مشيئتُه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1225.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38.

بلاغة الاستعارة التمثيليّة في الفاصلة:

في الاستعارة إخبار عن نفاذ قدرته تعالى، لتعلّقها به تعلُّقًا تنجيزيًّا

جاء في تلخيص البيان في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ "استعارةٌ؛ لأنه ليس هناك شيء على الحقيقة يؤمر ولا قول يسمع. وإنما هذا القول عبارة عن تحقيق الإرادة وسرعة وجود المراد، من غير معاناة ولا مشقَّة، فهو إخبار عن نفاذ قدرته تعالى. فإذا أراد أمرًا كان لوقته، من غير أن يبطىء إيجاده، أو يتقاعس إنفاذه. وذلك بمنزلة قول أحدنا: (كُنْ) في خفّة اللفظ به، وسرعة التعبير عنه، من غير كلفة تلحقه، ولا مشقة تعترضه"[1].

وتقرير هذه الاستعارة التمثيلية أنْ يُقال: شبَّه سرعة تأثير قدرته ونفاذها فيما يريده، بأمر المطاع للمطيع، في حصول المأمور به، من غير امتناع ولا توقُّف، وحينئذ فمعنى أن يقول له: كن، أن تتعلق به قدرته تعلُّقًا تنجيزيًّا؛ فإذا أراد شيئًا وُجِدَ من غير إبطاءٍ ولا تأخير[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ولد وغلام:

وصفُ الحدث الواحد من مشاهد مختلفة يكمِّل بعضُها بعضًا

ذكر الولد هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾، وقال تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: 19].

ما في سورة آل عمران حكايةُ معنى قول مريم عليها السلام وما في سورة مريم بِشارة المَلَك، فجاء اللفظُ المناسبُ مع البشارة بالبقاء، فلمَّا بشَّر مريمَ بعيسى؛ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: 45]؛ فجاء ردُّها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

(1) الرضي، تلخيص البيان: 2/191.
(2) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: ص 1580.

وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ وقد سبق بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، والكلمة أعمُّ من (الغلام)، وقد جاء الاستفهام منها بكلمة ﴿وَلَدٌ﴾؛ لأنَّ الولد يُطلق على الذكر والأنثى، وولادة الولد هنا من غير مسٍّ بشر؛ أي من غير اجتماع الأسباب المعهودة للولادة من الأبوين، ولذلك كان الجواب لها من الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ﴾، وأمَّا الذي في سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [مريم: 20]، فقولٌ ردَّت به من قبيل المشاكلة اللفظية على الرسول الذي ذكر لها الغلام في أثناء كلامه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: 19]، وليس سؤالاً منها لله تعالى، ولذلك أجاب الملك: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم: 21]، والوجه الجامع بين الموضعين وصف البشارة من كلٍّ وجهٍ؛ ابتداءً واستمرارًا.

يخلق، ويفعل، ويُنشئ، ويصنع:

التَّعبير بالخلق دلالـــة تـفـرُّد الخالق بالإبداع

عبَّر القرآن الكريم في جانب زكريا عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]، وهنا عبَّر بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنَّهُ إيجادٌ كائنٍ من غَيْرِ الأَسْبابِ المُعْتادَةِ لإيجادِ مِثْلِه، فَهو خَلْقٌ أُنُفٌ غَيْرُ ناشِئٍ عَنْ أَسْبابِ إيجادِ النّاسِ، فَكانَ لِفِعْلِ "يَخْلُقُ" هُنا مَوْقِعٌ مُتَعَيِّنٌ، فَإنَّ الصّانِعَ إذا صَنَعَ شَيْئًا مِن مَوادَّ مُعْتادَةٍ وصَنْعَةٍ مُعْتادَةٍ، لا يَقُولُ خَلَقْتُ وإنَّما يَقُولُ صَنَعْتُ[1].

و"للإشارة إلى أنَّ إيجاد ولد من شيخين عجوزين، ليس كإيجاد ولدٍ من أمٍّ فقط بلا أب، فكان الخلق والإبداع أنسبَ بعيسى من يحيى؛ ولذلك عقَّبه ببيان كيفية الخلق، فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾، والمراد بالأمر هنا الأمر التكوينيُّ، لا الأمر التكليفيُّ"[2]. قال الراغب: " فإن قيل: لم قال ها هنا: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وفي قصة زكريا: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]؟ قيل: لمّا كان الخلق أخصّ من الفعل خصّه[3]، بما هو إبداع"[4]؛ لكونه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/249.
(2) حجازي: التفسير الواضح 1/88.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 2/569.

إيجادًا لكائن من غير الأسباب المعتادة لإيجاد مثله، لذلك كان "الخلقُ المنبئُ عن الإحداثِ للمكوّن أنسبَ بهذا المقام لئلَّا يبقى لمبطلٍ شبهةٌ"[1].

الخلق إنشاءٌ على غير مثال سابق، والصُّنع يكون من موادّ معتادة

قال أبو زهرة: "وكلمة ﴿يَخْلُقُ﴾ غير (يُنشئ)؛ لأنّ الخلقَ إنشاءٌ على غير مثال سبق، فالتعبير بـ﴿يَخْلُقُ﴾ يفيد الإبداع، وأنه منهاج في التكوين يخالف منهاج غيره في التكوين"[2].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1225.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»